
الأدب الروحي الأرثوذكسي
٢
قصص
من الجبل المقدّس

سلسلة الأدب الروحي الأرثوذكسي ٢

قصص من الجبل المقدس

الجبل للنشر والتوزيع

التراث السلافي الأرثوذكسي

الكتاب : قصص من الجبل المقدس.

المترجم : عامر هلسا .

الناشر : الجبل للنشر والتوزيع .

الطبعة : الأولى ، ٢٠١٦.

رقم الإيداع : ٢٢٢٥٧/ ٢٠١٦

للطلب داخل جمهورية مصر العربية :

دار مجلة مرقص : ٢٨ شارع شبرا - ٢٥٧٧٠٦١٤

للطلب داخل المملكة الأردنية الهاشمية :

٠٠٩٦٢٧٩٦٥٠٠٣٣٢

للطلب داخل لبنان وسوريا والإستعلام عن اماكن التوزيع:

٠٠٢٠١٢٧٧٣٩٧٧٧٢ - ٠٠٢٠١٠٠٥٨٧٧٩٢٢ - ٠٠٩٦١٣٦٠٣٧٨٣

قصص من الجبل المقدس

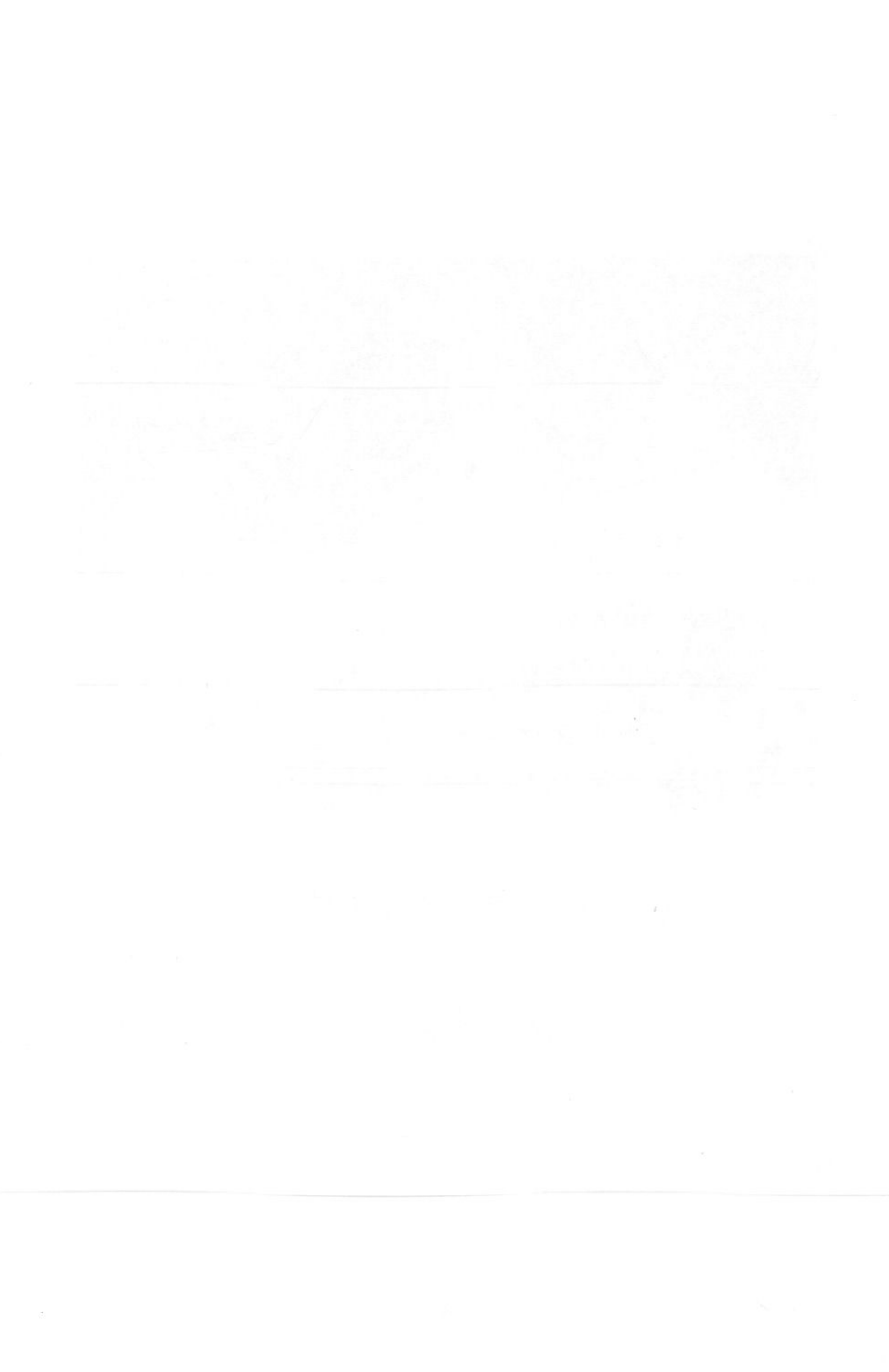
ترجمة / عامر هلسا
مراجعة : الدكتورة / يوليا بيتروفا

دليل الكتاب



دير القديس بندلايمون الروسي

بالجبل المقدس



الملاك الحارس

ذات مساء، عندما بدأت الخنافس المضيئة تزيّن جبل آثوس المقدّس بأضوائها وأخذ البحر ينوّم الأرض بهدهدة أمواجه الهادئة، شعر أثناسيوس الراهب العجوز لدير القديس بندلايمون الروسي بوخزة شديدة في القلب، وهي أشبه بضربة مخرز أنزلها شيطان لئيم.

حدث هذا بعد صلاة النوم عندما كان الأب أثناسيوس واقفاً يقيم قانون صلاته الشخصي الذي كان يتضمّن الصلاة بالمسبحة ثماني مرّات، وكان عليه إقامتها كونه راهب لابس المانتية كل يوم ما عدا أسبوع التجديدات. بالرغم من أن الأب الروحي للدير ألزم الجميع على إتمام هذا القانون صباحاً، إلا أنه بارك الأب أثناسيوس لإتمامه بعد صلاة النوم نظراً لوضعه الصحي الضعيف ولأنه كان يصعب عليه النهوض في الصباح الباكر.

كان صباح الراهب يبدأ في جوف الليل. فمنتصف الليل بحسب التوقيت البيزنطي هو وقت غروب الشمس، وتتزامن بداية صلاة النوم في آثوس مع أشعة الشمس الأخيرة. بعد انتهاء الصلاة كان الرهبان المتعبون من هموم النهار يتجهون كل واحد إلى قلايته. وكان عليهم النهوض لإتمام قانون الصلاة الشخصي قبل ساعتين من بداية السحرية

التي كان الجرس يدعو إليها في الساعة السابعة صباحاً. وبالتالي لم يكن نصيب الراهب من النوم إلا أربع ساعات.

أصبح أثناسيوس يتحمّل هذا النظام بصعوبة، وبعد أن تمّ إبعاده عن خورس الدير تدهورت حالته النفسية نهائياً.

في هذا المساء لحق أثناسيوس بإقامة صلاة المسبحة مرّتين فقط قبل أن تصيبه وعكة. جلس الراهب على السرير بحذر وهو يشعر بطعم الحديد في فمه. لم يكن عنده قوة ليدعو أحداً للمساعدة، وكان يئنّ بصوت خافت فقط. وآخِر ما فكّر فيه قبل أن يغمى عليه كان موضوع عداوته المستمرّة مع قائد الخورس اليمين للدير الأب باسيليوس. وهذه العداوة كانت تقطعه عن رحمة الله كسكّين حادّ.

نمط الترتيل الزناميني

هذا الراهب الكاهن الشابّ الذي وصل مؤخراً من موسكو كان يُعتبر من أفضل المتخصّصين في نمط الترتيل "الزناميني" وهو أقدم لحن في منظومة ألحان الكنيسة الأرثوذكسية الروسية، ويتميّز عن الترتيل المعاصر المتعدّد الدرجات بدرجة صوتية واحدة . قد تسنى للراهب الشاب إبعاد أثناسيوس من الخورس. كان الراهب العجوز قد قضى

عشرات السنين في هذه الخدمة ولم يعد يقدر على الصلاة خارج الخورس وعلى مجرّد الجلوس والنعاس متكئاً على المقعد مثل الرهبان الآخرين. لذلك كان شيوخ الدير الذين أشفقوا على أثناسيوس يصبرون عليه في الخورس وأقاموه قائداً ثانياً. ولكن الراهب العجوز لم يكن ينوي أن يتحمّل هذا.

نمط ترتيل كييف

كان الأب أثناسيوس يحبّ نمط ترتيل كييف الفرِح الذي كان محبوباً عند شيوخ دير أوبتينا. ولكن باسيليوس الشاب كان موقفه من نمط الترتيل هذا مستخفاً. وبعد نصف سنة من إقامته في الدير ألغى باسيليوس الترتيل "البارتيسي" – بما في ذلك مؤلفات الملحّنين بورتنيانسكي وأرخانغيلسكي وفيديل المحبوبة عند أثناسيوس – وهو يفسّر قراره بأن هذا الترتيل ليس رهبانياً ويعيق الصلاة بدلاً من أن يساعد عليها. فأخذ أثناسيوس بالتذمّر متسائلاً ماذا يفهم هذا الكاهن الشاب في الصلاة؟ إنه نفسه قد قضى ٣٥ سنة في خورس الكنيسة ولم تكن هذه التراتيل القديمة الجميلة تمنعه أو الرهبان الآخرين من الصلاة.

ولكن باسيليوس بعد أن قرأ كتباً متخصّصة أخذ بإدراج نمط

الترتيل"الزناميني" بغيرةٍ قائلاً إن له أثراً خاصّاً على المصلّين، وإن كل الأديرة اليونانية حافظت على الترتيل البيزنطي القديم، أما الترتيل البارتيسي فهو تأثير الثقافة الكاثوليكية الغربية التي ترفضها روحانية الجبل المقدّس. لا يمكن القول إن الأب أثناسيوس كان ضدّ الترتيل "الزناميني"، فعلى عهده كان الخورس كثيراً ما يؤدّي ثيوطوكيّات عقائديّة بهذا الترتيل، ولكن استخدامه دون غيره في الخدمة الإلهية كان أمراً غير معقول في رأيه. وصل باسيليوس إلى درجة أنه صار يرفض الألحان المتعارف عليها من تأليف الملحّنين الروس الكبار (تشيسنوكوف، كاستالسكي، أرخانغيلسكي). أمّا نمط ترتيل كييف الفرِح فلم يكن يطيقه إطلاقاً معتبراً إياه "منبتاً للغواية الروحية" وقائلاً: "إن أثناسيوس يعارض رغبتي في إدراج الترتيل الزناميني لأنه نفسه وقع في غواية بسبب تمسّكه بالترتيل البارتيسي".

الصراع

فابتدأ بين قائديْ الخورس العجوز والشاب صراع عنيف انتهى بانتصار الأب باسيليوس. لم يكن رئيس الدير يتدخل في هذا الخلاف ملتزماً بالحياد. جاء الأب أثناسيوس إليه في خضمّ الصراع ووجّه له الإنذار التالي: إذا تجرّأ باسيليوس على تبديل كل التراتيل بالترتيل

الزناميني فسيترك هو أثناسيوس الخورس. التهديد هو شيء غير مستحسن في الأديرة، فبارك رئيس الدير الأب أثناسيوس على أن يصلّي في الكنيسة وأضاف أنه ليس في الدير شخص لا يُعوّض.

بعد تلك الحادثة وقع الراهب العجوز في كآبة، وانفكّ حتى عن النظر ناحية قائد الخورس الشاب الغيور أكثر من اللازم. ولكن الآن، في وجه الموت المتوقع كان هذا الأمر يعذب ضميره.

قد يستغرب القارئ قائلاً إن الكتب عن الرهبان تقول العكس، وكيف يمكن للرهبان أن يتخالفوا بسبب هذه الأمور الثانوية التافهة، بينما يجب عليهم الاتضاع والصلاة فقط! ولكن حياة الراهب تتكوّن من هذه الأمور "الثانوية" ولا يمكن اعتبارها تافهة. فبعض التناقضات تستمرّ هنا عشرات السنين وهي تنطفئ تارة وتعود تلتهب تارة.

لم يكن الأب باسيليوس يخفي فرحه لانتصاره، وكان يقول: "ليست مشكلة، فإن العجوز سيتعوّد قريباً على النعاس على المقعد وستكون حياته أسهل".

ولكن الأب أثناسيوس كان رأيه مختلفاً، ولم يكن ينفكّ عن التفكير في الترتيل أثناء الخدم الإلهية ويلاحظ الأخطاء ويغضب

ولم يعد قادراً على الصلاة. فكل هذا عذب الراهب العجوز إلى درجة أن حياته تحوّلت إلى جحيم.

والآن عندما صارت نوبة القلب الحادة تهدّد حياته، كان من المحتمل أن يصبح هذا الخلاف وعواقبه مهلكة لروح الأب أثناسيوس. لأنه كان لا بد له من اجتياز محطات الجباية الهوائية.

أنزل أثناسيوس رأسه على المخدّة واضعاً يده على قلبه وحاول أن لا يغمض العينين، ولكنه لم يعد يرى إلا ضوء الشمعة الباهت.

دعا ملاكه الحارس فأغمي عليه.

الملاك الحارس

فاق أثناسيوس في ظلام دامس، وفكر: "لعلّ الشمعة قد احترقت وأنا في غيبوبة". وفجأة سُمع صوت خافت في القلاية:

- جيّد أنك ناديتني يا أب أثناسيوس قبل أن يتوقف قلبك.

- ارتعش الراهب:

- من هنا؟

- أنا ملاكك الحارس. قد حاولتُ أن أعقلك ولكن للأسف دون

جدوى، لأن عداوتك مع باسيليوس أبعدتني عنك. والآن بما أنك شعرتَ بالتوبة والحمد لله، استطعتُ أن أقترب من روحك من جديد. ولكن لا أعرف إذا كنت سأستطيع أن أساعدك في اجتياز محطات الجباية الهوائية.

- إذاً، سأموت؟

- نعم، وقد تموت الآن.

- يا ربّ ارحم! ماذا عليّ أن أفعل؟

- عليك بالصلاة فقط. سنتضرّع إلى الله معاً من أجل رحمة نفسك.

تملّك الأب أثناسيوس الرعب عند سماعه هذا الكلام. لماذا سمح للحقد بأن يستولي على قلبه في سنّ الشيخوخة؟ الحقد مثل أي خطيئة أخرى منبته الجحيم وقد تكون روحه فيه بعد قليل.

استطرد الملاك الحارس قائلاً:

- باسيليوس الشاب لا يزال لديه الحق في الخطأ. ولكنك قضيت كل هذه السنوات في الدير، فأين نضوجك الروحي؟ قد أكون أنا

السبب ولم أرشدك جيّداً؟ لأنك أظهرت أهواء ليس كل راهب مبتدئ يمرض بها. لو عرفتَ كم أنا حزين من أجل نفسك يا أب أثناسيوس!.

فسأل الراهب من جديد:

- ماذا عليّ أن أفعل؟.

- عليك بالصلاة فقط. سنتضرّع إلى الله معاً من أجل رحمة نفسك.

وحان الصمت. أصغى أثناسيوس ليسمع دقات قلبه ولكنه لم يسمع مهما حاول. فغطّته موجة الرعب الكثيفة. إنها النهاية!.

وفجأة تكلّم الملاك الحارس من جديد:

- الربّ رحيم! قد منحك يوماً آخر. وهذا يكفي لإطفاء العداوة لكي تموت بضمير صافٍ. اقتنِ روح السلام. وتابع الصلاة. نلتقي غداً، بإذن الله.

استيقظ أثناسيوس ولم يقدر أن ينام طويلاً. أخيراً قام وأشعل شمعة. فأضاء النور المعتاد كل القلاية، وكان كل شيء في مكانه: قناديل الزيت والإيقونات وكتب الآباء القديسين ومنضدة خشبية عليها

إنجيل مفتوح. كان مريد الرهبنة الشاب سمعان يتمشى في الممرّ حاملاً الجرس ويوقظ الرهبان لقانون الصلاة الشخصي.

كانت الساعة الخامسة بالتوقيت البيزنطي. أخذ أثناسيوس يصلّي قانونه من البداية دون أن يشعر بتعب. بعد إتمامه استلقى على السرير قليلاً قبل حضور السحرية يفكر متى يتقدّم إلى الأب باسيليوس ليعتذر على حقده. فقرّر: "بعد صلاة نصف الليل مباشرة، بعد أن يرتل الإخوة "ها هو ذا الختن يأتي في نصف الليل".

سامحني

هكذا فعل. تقدّم الراهب العجوز إلى مكان الخورس المظلم حيث كان المرتلون النعسانون واقفين، وعمل أمام قائد الخورس مطانية كبيرة.

- سامحني أنا العجوز يا أب باسيليوس! كم كنت حقوداً عليك!

ارتعش الأب باسيليوس من المفاجأة ولولا الظلام لكان من الممكن رؤية وجهه الذي ضاق ذرعاً. فأجاب بصوت عالٍ بحيث يسمعه الجميع مخاطباً قائد الخورس العجوز المنحني أمامه:

- لن يتسنى لك أن تعود إلى الخورس، لا تحاول ذلك. قال رئيس

الدير إنه قد تمّت إقالتك...

لولا التجربة الليلية والمعرفة أنه لم يبق له إلا يوم واحد في الحياة لتأثر قائد الخورس العجوز بوضعه المهين.

وقال واقفاً على ركبتيه: - لا أريد العودة إلى الخورس يا باسيليوس! أريد فقط التصالح معك.

- التصالح؟ – أشعل الأب باسيليوس النور وفتح الخزانة حيث كانت تُحفظ دفاتر النوتات للأب أثناسيوس والتي كان ينسخ الكثير منها بيده، فأخرج رزمة منها وسلّمها للراهب:

- قم يا أثناسيوس وخذ هذا و... أرجو أن لا أراك فيما بعد في الخورس. أتمنى أن تقدر على أن تطيع بركة رئيس الدير. قم، قم!

لكن الأب أثناسيوس استمرّ في التوسّل دون أن ينتبه إلى المرتلين المدهوشين بما يجري:

- باسيليوس، أنا أفهم كل شيء، لكن أرجوك أن تسامحني فقط.

لكن الكاهن الشاب كأن عقله تعكّر، وكلما أهان أثناسيوس

ذاته كلما اشتدّ حقد قائد الخورس.

- اسمع، أنت كنت تؤثر على أعصابي كل هذ الوقت، والآن تريد أن أسامحك، بهذه البساطة؟ الرب وحده يعرف كم تعذبتُ معك!

كان الراهب العجوز على حافة اليأس.

- باسيليوس، أنا التعيس أموت اليوم، وإذا لم تسامح شقاوتي قد أجد نفسي في الجحيم.

- الجحيم؟؟ – نظر باسيليوس إلى المرتلين بمرح. – إنك ستعيش أكثر منا جميعاً! كفاية! اذهب يا أب أثناسيوس إلى مقعدك وصلِّ للرب. إذا متَّ اليوم فأنا سأفقد موهبة النطق. هه.. سيموت! يظن أنه سيخيفني.

رغم أن معظم المرتلين كانوا مع الكاهن الشاب إلا أن وقاحته لم تعجبهم، فقال أحدهم وهو الأب زينون لقائد الخورس:

- سامحه أبونا، لماذا تسخر منه؟ قد يموت فعلاً!.

- لن يموت! اذهب يا أثناسيوس. إذا نويت أن تموت فمت، لكن لا تجرّبني. ألا ترى أنني في الخدمة؟ نرتل السينابتي بعد قليل، فاذهب!.

ازداد ضجر باسيليوس ولوّح بيده في وجه العجوز واستغرق في دفاتره مع نوتات الترتيل "الزناميني".

قام الأب أثناسيوس ورجع إلى المقعد حاملاً في يده دفاتره. وبدأ يصلّي هناك بحرارة من أجل أن توقف القوات السماوية هذه العداوة الشيطانية.

قام بعدّة محاولات أخرى للاقتراب من قائد الخورس الشاب أثناء النهار، ولكن باسيليوس غضب من العجوز الثقيل الدم إلى درجة أنه شكى عليه من رئيس الدير، فوبّخ رئيس الدير أثناسيوس ومنعه من تجريب الأب باسيليوس مرة أخرى.

الاستعداد للانتقال

في المساء اعترف أثناسيوس وأخذ يستعدّ للانتقال إلى الحياة الأبدية. كان يتذكر القانون النسكي القديم ولا يفقد الأمل في الخلاص، إلا أن الفكرة عن الجحيم لم تكن تفارقه.

بعد صلاة النوم قام ليقيم قانون صلاته الشخصي وهو يصغي إلى عجيج بحر إيجه الذي أصبح غالياً على الراهب الروسي. وانقبض قلبه

من الوخزة مرة أخرى. فتملّكه الرعب والظلام وتوقع الموت المحتم. ونادى أثناسيوس من جديد ملاكه الحارس.

- أنا هنا بجانبك يا أب أثناسيوس. لم تتمكن من إطفاء العداوة؟

- لم يعطني الرب أنا الشقي! – لو قدر الراهب العجوز لأجهش بالبكاء. – الآن كل أملي في رحمة الله.

- معك حق يا أب أثناسيوس. ولكن لم يأتِ الوقت بعد لتموت.

- كيف؟ إنك قلت...

- لا يزال أمامك خدمة. الأب باسيليوس فقد النطق وعليك أن تتوب عنه. أمّا العداوة فاعلم: الربّ قد قبل توبتك. الذي يطلب من الأخ معذرة صادقاً ينالها دائماً من الرب، حتى لو اشتدّ حقد الأخ وطرد طالب المعذرة.

- رحيم هو الربّ!

- والآن عليك بالصلاة! لا يعرف عدد أيّامك إلا الله. أمّا أنا فسأكون دائماً بجانبك، إذا لم تطردني عن نفسك بإهمالك وخطاياك والفكر الشرير. لنصلّ معاً.

فاق أثناسيوس وقام وأشعل شمعة. أضاء لهيبها البرتقالي المرتعش القلاية. ورغم أن كل شيء كان في مكانه – قناديل الزيت، الأيقونات، كتب الآباء القديسين ومنضدة خشبية عليها إنجيل مفتوح – إلا أنه بدا لأثناسيوس كأن أحداً قد مسح الغبار من أشياء هذا العالم.

كان مريد الرهبنة الشاب سمعان يتمشى في الممرّ حاملاً الجرس ويوقظ الرهبان لقانون الصلاة الشخصي.

أتمّ أثناسيوس الصلوات المطلوبة بالمسبحة واستراح قليلاً واتجه إلى الكنيسة. كانت الخدم في هذا الأسبوع تقام في كنيسة ستر والدة الإله. ما أن وقف إلى مقعده عند أيقونة القديس سيرجي، حتى تقدّم إليه المسؤول عن نظام الدير راكضاً ونقل إليه بركة رئيس الدير لقيادة الخورس من جديد، لأن الأب باسيليوس الشاب قد فقد نطقه إما بمعجزة أو بوسوسة شيطانية.

رجع الأب أثناسيوس إلى مكان قائد الخورس محاولاً أن لا ينتبه إلى نظرات المرتلين المنبهرة إعجاباً، وهم قد شهدوا تصرّفه الرهباني الشجاع وشفاعة سماوية واضحة.

قم بجانبي، فلنصلّي

جاء الأب باسيليوس أيضاً إلى الخورس وركع منسحقاً أمام الأب أثناسيوس. ولكنه أقام قائد الخورس الشاب ونظر في عينيه بلطف.

- لديك يا أبونا الحق في الخطأ، أمّا أنا فلا. قم بجانبي، فلنصلّي إلى والدة الإله لتعيد إليك صوتك الرائع.

تلا القارئ الصلوات من الثلاث تقديسات إلى "أبانا الذي في السماوات" بصوت جهوري، وأعلن الأب أثناسيوس اللحن.

"ها هو ذا الختن يأتي في نصف الليل، وطوبى للعبد الذي يجده مستيقظاً" – انسابت تحت قبّة كنيسة ستر والدة الإله طروبارية صلاة نصف الليل بانسجام على طريقة ترتيل كييف.

وهكذا تمّ حلّ أحد تناقضات الدير بسلام.

كان الرهبان ينعسون على مقاعدهم ويستمعون إلى الترتيل. الشيطان وحده لم ينعس وهو يرمي سهامه الحامية نحو النسّاك لإشعال الأهواء والشهوات.

كانت الحرب غير المنظورة تستمرّ.

الملاك الحارس للكاتب ستانيسلاف سينكين

ستانيسلاف سينكين (مواليد ١٩٧٥) – كاتب روحي روسي معاصر. قد قضى ثلاث سنوات في جبل آثوس المقدّس وأصدر عدة مجموعات من القصص الآثوسيّة وهي مبنية على الأحداث الحقيقية (أسماء الأبطال تمّ تغييرها).

الأم

كانت تتذكر خطواته الأولى عندما كان يمدّ يديه إليها وهو يتأرجح على رجليه الصغيرتين المكتنزتين ويدبدب بخطواته حتى يوشك أن يقع على الأرض فيجد نفسه في أحضانها. كان ولداً وسيماً قوياً طيباً، وكان لماحاً يتعلّم بسرعة أطيب الكلمات وأجمل الحركات.

كانت تنبعث منه رائحة الربيع وكأنه يريد أن يبقى معه إلى الأبد. كانت الأم تتذكر كلمته الأولى وهي كما عند كل الأطفال كلمة "أمي". لقد نطقها وابتسم ابتسامة هادئة. احتفظت الأم بهذه الابتسامة في داخلها كونها وجدت فيها لغزاً، وهي ككلّ امرأة أرادت أن تحلّ كل الألغاز في العالم، ولكن هذه المرّة لم تقدر على ذلك.

كان قلب الأم يتّسع لمحّبة يكفي قدرها للجميع، ولكنها كانت تحبّه هو أكثر من غيره. كان يبدو لها أنّ نجماً سعيداً يسطع فوقه منذ ولادته ولا يغادر سماءه ليلاً ونهاراً.

كان زوجها قد تركها وذهب إلى امرأة أخرى ولكنها لم تكن تلومه أبداً معتقدة أنها لم تستطع أن تعطيه ما أراده. كانت تقول

لصديقاتها: "السمكة تبحث عن مكان أعمق، أما الإنسان فعن مكان أفضل. ولكن يوجد عندي طفلي". كانت تدعوه وتمسح شعره المتجعّد العاصي قائلة: "إنه سيملأ حياتي بما فيها بفيض الملء!". ولم تكن صديقاتها يشككن في ذلك.

الفردوس والجحيم

إنّ كل أسرة لها فردوس صغير خاصّ بها كما لها جحيمها الصغير. كان الولد يكبر في فردوس محبّتها، أما جحيم الحياة الصعبة والمُعقّدة فقد تركته لنفسها. لم تكن الأم تأتي بأحزانها وضيومها وخيبات أملها إلى البيت أبداً، ولكن محبّتها الفائقة لم تفسد الابن. لم يكن الولد يظلم أترابه أبداً في ألعاب الأطفال التي تكون قاسية أحياناً وكان يدافع عن الضعفاء دائماً. لم يكن مخلوقاً طائعاً بل على العكس، جعلته طاقته الفوّارة قائداً لأولاد الحارة الذين كانوا يقدمون تحت قيادته على مغامرات تسبّب لهم عقاباً من الآباء. كان الجميع يُعاقبون إلا هو. لم يكن الابن بحاجة إلى العقاب، وذلك لأن نظرة الأمّ الحزينة كانت تؤثر عليه أكثر من الحزام.

لم تكن الدراسة تهمّه كثيراً، ومهما اجتهدت الأم كان يتعلّم بنوع

من الفتور. ولكن مواهبه الموروثة لم تدعه يبقى بين الفاشلين، بل ساعدته أن يتقدّم أحياناً إلى مستوى المتفوّقين الأوائل. على كل حال، تخرّج من المدرسة وليس في شهادته علامة "مقبول" واحدة.

كانت الأم تعتقد أن ابنها سيكون إنساناً عظيماً وأنها ستفتخر به في شيخوختها. ليس من المهمّ أن أسرتهما الآن صغيرة مثل شجرة تفاح بالغة سنة واحدة. سيتزوّج الابن وسيكون عنده أطفال موهوبون مثله، فبعد مرور عدّة عشرات من السنين ستصبح شجرتهما العائلية كبيرة ذات ثمار وغير خائفة من عواصف هذه الحياة القاسية، وسيكون بإمكانها أن تحمي تحت ظلّها أناساً مساكين كثيرين.

كانت مستعدّة لكل شيء من أجل أن يتحقق هذا الحلم. كانت حياتها في نظر المحيطين بها خاملة مملّة. لقد امتنعت عن فكرة تدبير حياتها الشخصية ولم تكن تأتي برجال إلى البيت لأنها لم تعرف كيف يستوعب ابنها الحبيب هذا الأمر.

كانت الأم تشتري له منذ طفولته المبكرة كتباً في شتى المواضيع لكي تتكشف لها ميوله. كانت متحيّرة لأن الولد لم يكن مهتماً بالسيارات ولا بألعاب التصميم، كما لم يجذبه الرسم أو التشكيل

من معجونة الملتين. لم يثر اهتمامه الصادق سوى كتاب مصوّر عن السماء المليئة بالنجوم. فطلب منها أن تشتري المزيد من الكتب عن النجوم والكواكب وكان يقرأها طول الوقت. كانت الأم تتساءل: "أيريد أن يكون عالم فلك؟ وهل هذه هي دعوته؟ يا ترى هل هذا يناسب مواهبه؟". مهما حاولت لم تستطع أن تتذكر اسم عالم فلك مشهور واحد. فكيف ستستطيع أن تفتخر بعالم فلك بسيط؟ ولكن، قد يريد أن يصير رائد فضاء؟ إنه يملك كل ما يلزم لذلك: الصحة والذكاء والإصرار. وعندما طلب الولد أن تشتري له التلسكوب بدأت الأم تدّخر النقود من مرتّبها المتواضع الذي لصغار العاملين في الأبحاث العلمية من أجل هذه اللعبة الغالية الثمن.

وأخيراً، عندما كان في الحادية عشرة من عمره وجد تحت شجرة رأس السنة تلسكوباً صغيراً وكان فرحه لا يوصف. كانت الأم تقول في نفسها بقلق: "يا ليته يصبح رائد فضاء أو على الأقلّ مهندس تصميم، ولكن ليس عالم فلك!".

ثمّ نسي الابن عن التلسكوب وابتلعه الشارع والصبايا. كانت هذه الأمور طبيعية بالنسبة لكل ولد، ولكن، في رأي الأم، كان لا بدّ من أن يكون لابنها طريق سعيد خاصّ! تحيّرت الأم وندمت قليلاً على

إنفاق النقود على التلسكوب، فكان من الأفضل أن تشتري له ثياباً جيدة.

الوقت يمر والأم تشيخ

كان الوقت يمرّ، والأم تشيخ والابن يكبر. لقد دخل جامعة مشهورة وكثيراً ما كان يرجع إلى البيت مع باقة زهور لها. ظهرت عنده صديقة جميلة ذكية غير مهتمّة بتلك الهوايات المعاصرة التي قد سحرت الجيل الجديد. كان يبدو أن أحلام الأم بشجرة عائلية رائعة ستتحقق قريباً، فسيكون عند الزوجين الشابّين أطفال جميلون وعندها أحفاد أحبّاء. سيكون ابنها إنساناً ذا هيبة، وستكون شيخوختها هادئة وسعيدة وهي محاطة بالأحبّاء. صارت ترى أحلامها تفرّخ وتعطي أغصاناً خضراء نحو مستقبل ذهبي منشود.

كتاب العهد الجديد

ولكن حياة ابنها أخذت تتغيّر بشكل مفاجئ. ابتدأ ذلك بعد أن جاء الابن إلى البيت بكتاب "العهد الجديد". لم تكن الأم متديّنة وكانت تؤمن بقوة العلم والعقل والتقدّم العلمي التكنولوجي. كانت ملحدة مقتنعة ولم يكن في البيت أي كتب دينية أبداً. صار إنجيل

ابنها أوّل كتاب مسيحي وُجد في شقتهما من غرفتين ذات سقوف عالية في عمارة مبنية في عهد ستالين.

أخذ الابن يقضي ساعات مع هذا الكتاب كما كان يجلس منذ عدة سنوات مع الكتاب عن السماء والنجوم. قلقت الأم وتكلمت مع صديقة ابنها فعرفت أنها أيضاً غير مرتاحة لهوايته الغريبة.

ظهرت على رفّ الكتب للابن كتب غامضة على غُلفها صور رهبان ملتحين صارمين لابسين ملابس سوداء وفي أيديهم مسبحة. كانت تقرأ أسماءهم – إغناطيوس بريانتشانينوف، ثيوفان الحبيس، يوحنا السلّمي، مكسيموس المعترف – والخوف المجهول يملأ قلبها.

ازداد عدد الكتب التي تحمل صور الشيوخ الصارمين أكثر فأكثر. كانت تخاف منهم كما من سحرة قدماء مستعدّين لوضع سدّ أمام أحلامها المحترقة في النار التي كانت تملأ أعين هؤلاء الناس الغرباء عليها. لقد صار الشيوخ جداراً بين الأم والابن. لم تنطفئ المحبّة بينهما، ولكن مع كل كتاب مقروء جديد كانت تشعر بأن البرودة بينهما تزداد.

ذات يوم عندما كان الابن خارج البيت، دخلت غرفته بحذر وفتحت

العهد الجديد بيدين مرتعشتين. وأوّل عبارة وقعت نظرتها عليها كانت: "وأعداء الإنسان أهل بيته" (مت ١٠: ٣٦). أغلقت الأم الكتاب وارتمت على السرير وبكت. ما الذي يعلّمه هؤلاء الرهبان الملتحون؟ كيف يمكن أن تكون هي التي ربّت الابن بكل هذه المحبّة عدواً له؟.

عندما رجع من المعهد حاولت الأم أن تفاتحه بجدّية. أرادت أن تعرف إلى أيّ مدى ابتعد ابنها عن ذلك الطريق الذي كانت قد حدّدته له في أحلامها. كان حديثهما صعباً. كانت عيناه ملتهبتين مثل أعين الشيوخ من كتب الرهبان، وكأنه نسي أنها كرّست حياتها له وهو يحاول أن يقنعها بأن تفهم وتقبل تلك الحقيقة الأبدية التي انكشفت له. لم يفكّر في أنّ أحلامها تحطّمت. كانت تجادله وتحاول إقناعه بالعكس ثمّ بكت. كان الابن يعزّيها ولكنه بقي ثابتاً في حزمه.

مرّ أسبوعان، فعزمت الأم على خطوة متهوّرة. تقدّمت من رفّ الكتب بكراهية مكتومة ونظرت في أعين الشيوخ الملتحين نظرة ظافرة ووضعت كل الكتب في حقيبة وأخفتها في الخزانة. عندما رجع الابن قالت له إنّ كل ما كان مولعاً به في الفترة الأخيرة هو هذيان مضادّ للعلم ورعونة وإنّ الدين مضرّ للشباب غير الناضجين. ثم كتّفت يديها وأعلنت بحزم أنها رمت كل كتبه في حاوية القاذورات.

جلس الابن على السرير وبكى قابضاً على رأسه بين يديه. فسمعته يهمس بصوت خافت: "وأعداء الإنسان أهل بيته". أجهشت الأم بالبكاء وركضت إلى غرفتها وأرجعت له الحقيبة. لقد اتضح لها أنّ أحلامها من الصعب أن تتحقق نظراً لمزاجٍ كهذا لابنها.

ثم ترك الابن الدراسة في الجامعة وتركته صديقته. كان يتألم كثيراً إثر انقطاع العلاقة بينهما وأملت الأم في أن هذا الحبّ الأول الفاشل سيرجعه إلى الصواب. كلاّ. وجد الابن عملاً في إحدى الكنائس كخادم هيكل وأطلق لحيته. كان يعامل أمّه بلطف ولباقة كما في السابق ولكنه نبّهها إلى أنّ الطريق الذي اختاره هو فوق أي شيء آخر وأنّ قراره لن يتغيّر.

حان العصر الذي لم يعد الدين يُعتبر فيه من رواسب الماضي. انتهى اضطهاد المؤمنين وتوقف الأرثوذكس عن الاختفاء. فعرفت الأم أن العديد من العلماء كانوا مؤمنين، منهم الأكاديمي بافلوف والبروفسور لوسيف.

في السنة التالية دخل الابن الكلية الإكليريكية في سيرجييف بوساد (سيرجييف بوساد – مدينة في محافظة موسكو تقع فيها لافرا الثالوث القدوس والقديس سيرجي).

كانت الأم تزوره في أيام العطلة وصارت تتشرّب بالأرثوذكسية شيئاً فشيئاً. لم يعد الشيوخ الملتحون في نظرها عابسين جداً، فانتعشت أحلامها مرة أخرى.

كان الابن ينجح في دراسته وصارت عنده صديقة كانت تدرس في نفس المكان في قسم الترتيل. فوجدت الأمّ أنه من الجميل والنبيل جداً أن يصبح ابنها كاهناً. إنه سيساعد الناس وقد تنطلق منه عشيرة كهنوتية قوية.

وهكذا مرّت السنون.

كان الابن يدرس في السنة الأخيرة من الكلية الإكليريكية واستعدّ للرسامة. كانت صديقته موافقة على أن تصير خورية، وكانت الأم تأمل في أنّ شجرتهم العائلية ستنمو من الآن وتثمر.

ولكن كل شيء تغيّر فجأة من جديد. فتلك النار التي لإغناطيوس بريانتشانينوف ويوحنا السلّمي وثيوفان الحبيس ومكسيموس المعترف ويوسف الهدوئي أحرقت كلّ أحلامها مرة أخرى.

ذات يوم عندما كانت الأم تشرب الشاي في المطبخ وتحلم بالمستقبل اتصلت بها خطيبة ابنها مُنتحبة وقالت لها شيئاً انكمش منه قلب الأم ألماً وخوفاً.

اتضح أنّ ابنها، ببركة من شيخٍ ما، ترك الكلية الإكليريكية وذهب إلى جبل آثوس المقدس في اليونان ليصير هناك راهباً صامتاً عن الكلام.

لم تذرف الأم دمعة واحدة. كانت تجلس متجمّدة في المطبخ وهي تفهم أنّ حياتها وأحلامها قد احترقت. في تلك اللحظة كادت تكره ابنها الذي تصرّف معها بهذه القسوة. إنها كانت قد وهبت له كل حياتها، أما هو فحطّم أحلامها ولم يُردْ أن يكرّس نفسه لشيخوختها.

لم تصلها أخباره لمدة سنة كاملة. في غضون ذلك هدأت الأم وخضعت للأمر. ولكي تكون أقرب إلى ابنها صارت تحضر إلى الكنيسة وتعترف وتتناول. عندما كانت تصلّي إلى والدة الإله كانت تؤمن بأنّ ابنها تحت رعايتها. كانت تطلب من العذراء الفائقة القداسة أن تعينه في أتعابه الرهبانية الصعبة. ومع الوقت صارت تشعر بصلةٍ ما بابنها من خلال الصلاة، وكأنّ صلواتها تحميه هناك في آثوس، وصلاته تحفظها هنا من كل شرّ. خضعت الأم لمصيرها وذهبت لتدرّس في مدارس الأحد.

وأخيراً جاءتها الرسالة الأولى. ضمّتها إلى قلبها وهي لا تتجرّأ على

فتح الظرف في الحال. ولكن بعد دقيقة كانت تمعن النظر في كلمات قليلة وكأنها تسمع الصوت الغالي. لقد كتب أنه صار طالباً للرهبنة في قلاية يونانية، وشيخ القلاية لم يسمح له بالاتصال بها لمدة سنة تجنّباً للتجارب التي للمبتدئين، لكي لا تجعله رسائلها الملآنة بالحزن والمحبّة يتراجع عن الطريق الذي اختاره. خلال هذه السنة الصعبة كان قد تثبّت في اختياره وقرّر أن يبقى في آثوس حتى آخر أيامه. طلب الابن منها ألا تكون رسائلها حزينة وتعطي فكرة عن أحوالها باختصار وتصله ليس أكثر من أربع مرّات في السنة، وبدون أيّ صور. كما طلب منها أن تصلّي له أكثر، لأن جبل آثوس هو مكان التجارب الدائمة.

كانت تصلّي بكلّ قدرتها وتجد في الصلاة من أجل ابنها راحة وتعزية حقيقية. كانت النساء في الكنيسة يناقشن في أمرها أحياناً قائلات: "ما أسعد حظّها، ابنها يتنسّك في آثوس ويصلّي من أجل خلاص عشيرته كلها!". لم يكنّ عارفات كم كان قلب الأم يتألّم من أجل الابن. كيف ابنها الحبيب وهو عائش هناك في بلد غريب، مع شيخ صارم، وسط الحرمان والضيقات؟

وهكذا مرّت عدة سنوات أخرى. صارت الأم وهي ملحدة سابقاً

تدرّس في مدارس الأحد أسس التعليم المسيحي، وكان ابنها قد لبس الإسكيم وأخذ اسماً آخر. كان قد تعلّم اللغة اليونانية وببركة من الشيوخ صار يترجم الأدب الآثوسي. كانت تشتري الكتب المترجمة من قبله ومن خلال كل سطر كانت تشعر بروحه الموهوبة الطاهرة.

لقد أدركت الآن أنّ اختيار ابنها كان صحيحاً، أمّا أحلامها فأنانية. إنها أرادت السعادة لنفسها فقط، أمّا هو فأصبح مصلياً من أجل العالم كله. فصارت تفتخر باختياره الذي غيّر حياتهما إلى هذه الدرجة. وبعد قليل أصبحت الأم مديرة لمدرسة الأحد. كان في قدرتها أن تحبّ وقد تعلّمت الصبر، فعندما كانت تشرح للتلاميذ أسس التعليم المسيحي كانت خبرتها النفسية الصعبة تساعدها في جعل المادة قريبة ومفهومة بالنسبة للأطفال.

الإنسان مخلوق قصير العمر

ولكن الإنسان هو مخلوق قصير العمر وخاضع للأمراض. كانت الأم قد وجدت نفسها في المستشفى أكثر من مرّة بسبب نوبات قلبية. كانت لها رغبة شديدة في رؤية ابنها ولو مرّة واحدة قبل موتها لتعرف كيف صار، وكان هذا آخر أحلامها. دفعها شوق قلبها إلى مخالفة وصية الشيخ فأخبرت الابن بمرضها، وكتبت له أيضاً أنّه قد لا يبقى

لها إلا وقت قليل. طلبت منه أن يسأل موافقة الشيخ على وصولها إلى اليونان ورؤيته آخر مرة. لعلّ "الغيروندا" يوافق على رغبة الأمّ التي حياتها على وشك الانتهاء، فوعدت الابن بأن تمتلك نفسها بكل قدرتها ولا تذرف دمعة واحدة عند اللقاء.

وبعد قليل أرسل الابن الجواب. كان قد نذر نذراً بعدم مغادرة أرض آثوس أبداً، وكما هو معروف، يُمنع على النساء دخولها. ولكن شيخه اعتبر رغبة الأمّ شرعية وابتكر طريقة للقائهما.

كان عنده صديق وهو ربّان عبّارة "أكسيون إستين" التي كانت تقلّ الحجّاج إلى الجبل المقدس. فكان على الأمّ أن تقصّ شعرها وتتنكّر في ملابس الرجال، ثمّ أن تتصل بالربّان الذي أعطي لها رقم هاتفه وعليه أن يخبّئها في حجرته. وعندما تبلغ العبّارة "الأرسانا" أيْ مرسى كافسوكاليفيا القديمة حيث يتنسّك الابن، سيقول الربّان للركّاب إنه يوجد عطل في العبّارة، وبالتالي ستبقى العبّارة حوالي عشر دقائق عند الشاطئ، وفي هذه المدّة يمكن للأم والابن أن يلتقيا على متن العبّارة. وبحسب رأي الشيخ، ذلك لا يُعتبر تعدياً لقانون الجبل المقدس ولا مخالفة لنذر الراهب الشاب، لأن الأم لن تطأ رجلها على آثوس، أما الابن فلن يخرج من الجبل المقدس أيضاً لأن العبّـارة سترسـو

عند الشاطئ.

قبلت الأم اقتراح الشيخ هذا بفرح عظيم. فاستدانت النقود ووصلت إلى اليونان وبلغت سالونيك حيث التقت بربّان العبّارة الذي كانت زوجته من يونان "البنطس" وكانت تعرف الروسية جيداً.

الجبل المقدس

فحان اليوم المنتظر. كانت الأم وهي متنكّرة في ملابس الرجال لكي لا تكون عثرة للحجّاج تجلس في حجرة الربّان وتنظر عبر النافذة متذوّقة اللقاء. كانت كافسوكاليفيا آخر موقف للعبّارة. كانت الأم لم تنظر إلى شواطئ آثوس الجبلية الخضراء حيث تحققت أحلام ابنها الذي كما يبدو شاءت إرادة الله منذ أن وُلد أن يصير راهباً آثوسياً. كانت قد رأت هذه الشواطئ والأديرة مرّات كثيرة على الصور وعرفتها بالاسم. ها هو مباشرة بعد "دافني" دير "سيمونوبيترا" الواقع على صخرة، ثمّ "غريغوريو" الصغير وثمّ "ديونيسيو" الصارم.

وأخيراً رست العبّارة بعد ساعة عند أرسانا كافسوكاليفيا. لم يكن من المخطّط وقوفها هناك في ذلك اليوم، ولذلك لم ينزل أحد إلى الشاطئ ولم يصعد أحد على متنها.

كانت الأم مضطربة وهي تحاول مندفعة أن تقترب من حافة المتن. أيمكن أن يكون الشيخ قد حدّد تاريخاً آخر؟ لم يستطع الربّان أن يمسك بالأم التي كانت تقف عند حافة المتن شاخصة إلى الشاطئ. ولكن لم يكن أمامها سوى صخرة واطئة وردية اللون وبعض الحيطان الحجرية. كانت أمواج البحر تتكسّر على الأرسانا، وكان الربّان ينظر إلى ساعته بقلق. وأخيراً أشار لها بيديه مظهراً أنّ الوقت قد مضى ويجب الانطلاق إلى الوراء. فانطلقت العبّارة في طريق العودة. كانت الأم واقفة في حيرة على المتن وتشاهد المحرّك يرغّي ماء البحر.

وفي هذه اللحظة خرج الابن من وراء الحائط الحجري ونطق ما يمكن الشعور به فقط دون سماعه بسبب صوت المحرّك. قال: "أمي"، فاستنار البحر بنور سعادتها الساطع. إنه الآن كان يشبه كثيراً الشيوخ الملتحين اللابسين ملابس سوداء من كتبه. فمدّت إليه يديها وكأنها تريد أن تعانقه آخر مرّة.

كانت العبّارة تبتعد عن الشاطئ أكثر فأكثر وهي تبعدها عن ابنها. نظرت الأم في عينيه فوجدت فيهما تلك النار التي قد أحرقت كل أحلامها.

ولكنها عرفت الآن ما هي هذه النار.

إنه لهيب المحبّة الأزلية.

ستانيسلاف سينكين.

قصص من الجبل المقدّس

+ كان صباح الراهب يبدأ في جوف الليل. فمنتصف الليل بحسب التوقيت البيزنطي هو وقت غروب الشمس، وتتزامن بداية صلاة النوم في آثوس مع أشعة الشمس الأخيرة.

بعد انتهاء الصلاة كان الرهبان المتعبون من هموم النهار يتجهون كل واحد إلى قلايته. وكان عليهم النهوض لإتمام قانون الصلاة الشخصي قبل ساعتين من بداية السحرية التي كان الجرس يدعو إليها في الساعة السابعة صباحاً. وبالتالي لم يكن نصيب الراهب من النوم إلا أربع ساعات.

ستانيسلاف سينكين.



التراث السلافي الأرثوذكسي

Al Jabal